مدخل نحو السّرديّات (تحديدات أوليّة للمفاهيم)

تمهيد:

إنّ الحديث عن السّرديّات العربيّة، يقودنا إلى الغوص في الحقول والمشارب المعرفيّة المختلفة والمتباينة، والتي كان لها دورا قويّا في تأسيس السّرديّات أو علم السّرد (**Narratalogie**) عند الغرب، ممّا يستلزم على الباحث والمهتم بعلم السّرد تتبّع الحركة التّاريخيّة لمسار الدّراسات النّظريّة والتّطبيقيّة، التي كانت حول الحكائيّة أو السّرديّة وبدايات الاهتمام والبحث في النّحو السّردي ثم البحث في السّرديّات كمقاربة نظريّة عربيّة في الدّراسات العربيّة ومنه فالبحث في السّرديّات العربيّة يأخذ توجّهين الأوّل: تراثي وهو الاهتمام بالسّرد والحكي في التّراث العربي مثل: (رسالة الغفران، حكايات شعبيّة والمقامات، قصص كليلة ودمنة، وحكايات ألف ليلة وليلة...)، والثّاني: نحو النّصوص الحديثة مثل: ((الرّواية بأنواعها المختلفة: (التّاريخيّة والرّومانسيّة، والواقعيّة، والجديدة، والرّقميّة...) والقصّة، والفيلم السّينمائي والخطاب الإشهاري...)).

وعلى هذا الأساس سنركّز على التّوجه الثّاني المتعلّق بدراسة النّصوص السّرديّة الحديثة، والبحث في المحكي كصيغة للتّمثيل اللّفظي للحكاية باستجلاء العلاقة بين (المحكي، والحكاية، والسّرد) ومنه ماذا نقصد بالسّرديّات أو علم السّرد؟، وماهي مستويات السّرد ومظاهره؟، وماهي الأدوات الاجرائيّة لتحليل النّصوص السّردية؟.

1- مصطلح السّرديّات / علم السّرد (Narratalogie):

1-1- مفهوم السّرد (Narration):

يرد مصطلح السّرد في المفهوم المعجمي نحو قول "ابن منظور" في مادّة "سَرَدَ": «السَّرْدُ في اللّغة تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متّسقا بعضه في أثر بعض متتابعا، وسرد الحديث ونحوه يَسْرُد سردا إذا تابعه»[1] فالسّرد هو التّتابع في الحديث، و«رواية سلسلة من الأحداث في تتابع زمني يخضع لرؤية الرّاوي الخاصّة ولأطر السّرديّة (Narrativité) فيكون من نتيجة ذلك نصّا سرديّا (Récit)، قد يكون قصّة فنيّة أو مذكّرات...»[2] ويتمحور علم السّرد أو السّرديّات حول دراسة البنيات السّرديّة، ونظم الخطاب في النّصوص السّردية عموما والقصصيّة على وجه الخصوص وتأسّس علم السّرد في سيّاق التّطور الكبير الذي عرفه النّقد الأدبي المعاصر بداية من القرن العشرين. وكان الاتّجاه الجديد يقضي بالمقاربة الموضوعيّة والعلميّة للنّص الأدبي، فكانت جهود الشّكلانيين الرّوس رائدة في هذا المجال كموضوع مستقل لم يتم التّنظير له إلاّ مع بداية الستينيّات ليعرف تطورا أكبر

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، المجلّد الأوّل، مادّة (س. ر. د)، دار صادر، بيروت، لبنان ط1، 1997، ص 273.

[2] بوعلي كحال، معجم مصطلحات السّرد، عالم الكتب للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1 2002، ص62.

في المراحل التّاليّة، وذلك بفضل مجهودات زمرة من الباحثين الفرنسيّين وعلى رأسهم "جيرار جينيت"[1] .

وتعتبر السّرديّات فرع معرفي، يحلّل مكوّنات وميكانيزمات المحكي لكلّ محكي موضوع. إنّه يجب أن يحكي عن شيء ما. هذا الموضوع هو الحكاية. هذه الأخيرة يجب أن تنتقل إلى المتلقي بواسطة فعل سردي هو السّرد. الحكاية والسّرد مكوّنان ضروريّان لكلّ محكي، والمحكي خطاب شفوي أو مكتوب يعرض حكاية؛ والسّرد هو الفعل الذي ينتج هذا المحكي[2]. ويقوم الحكي عامّة على دعامتين أساسيّتين: أوّلاهما: أن يحتوي على قصّة ما تضمّ أحداثا معيّنة، وثانيّتهما: أن يعيّن الطّريقة التي تُحكى بها تلك القصّة، وتسمّى هذه الطّريقة سردا. ذلك أنّ قصّة واحدة يُمكن أن تُحكى بطرق متعدّدة، ولهذا السّبب فإنّ السّرد هو الذي يُعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساسيّ[3].

إنّ كون الحكي هو بالضّرورة قصّة محكيّة يفترض وجود شخص يحكي، وشخص يحكى له؛ أيّ وجود تواصل بين طرف أوّل يدعى (راويا أو ساردا (Narrateur)، وطرف ثاني يدعى مرويّا له أو قارئا أو المسرود

---

[1] بوعلي كحال، معجم مصطلحات السّرد، ص67.

[2] جيرار جينيت وآخرون، نظريّة السّرد من وجهة النّظر إلى التّبئير، تر: ناجي مصطفى منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، ط1، 1989، ص97.

[3] حميد لحمداني، بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط3، 2000، ص45.

له (Narrataire) (...)، فالقصّة باعتبارها محكيّة أو مروية تمرّ عبر القناة كما في الشكل الآتي:

وأنّ السّرد هو الكيفيّة التي تُروى بها القصّة عن طريق هذه القناة نفسها. وما تخضع له من مؤثّرات بعضها متعلّق بالرّاوي/السّارد، والمروي له / المسرود له، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها[1] . «ويمارس السّرد من خلال الخطاب، والرّاوي، والمتلقي تأجيلا دائما للمعنى من خلال إبهار المتلقي داخل النّص وخارجه عبر وسائط متعدّدة تمثّل جماليّة الخطاب السّردي»[2] . ومنه يمثّل علم السّرد (أو نظريّة السّرد) ميدانا معرفيّا بينيّا ومن ثمّ لا يحتاج لدراسته – بالضّرورة– أن نتناوله في إطار منظور علم العلامات، أمّا علم السّرد العلامي فهو يهتم بالنّصوص السّرديّة أيّا كان شكلها سواء أكانت أدبيّة أم غير أدبيّة. قصصيّة أم غير قصصيّة. لفظيّة أم بصريّة كما أنّه يميل أيضا إلى التّركيز على الوحدات السّرديّة الصّغيرة وكذلك قواعد الحبكة[3].

---

[1] حميد لحمداني، بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي، ص45.

[2] نعمان بوقرة، لسانيّات الخطاب (مباحث في التأسيس والإجراء)، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص316.

[3] دنيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسيّة في علم العلامات (السّيميوطيقا) تر: شاكر عبد الحميد وآخرون، أكاديميّة الفنون، دط، دت، ص130.

وبذلك ففي السّرديّات اتجاهان: الأوّل المسمّى عادة السّيميائيّات السّرديّة ويمثّله: (بروب، بريمون، غريماس...)، ويهتم بسرديّة (Narrativité) الحكاية دون اهتمام بالوسيلة الحاملة لها – رواية ، فيلما أو رسوما – مادام نفس الحدث يمكن ترجمته بوسائل مختلفة، إنّه يدرس مضامين سرديّة بهدف إبراز بنياتها العميقة التي تعتبر عادة كونيّة، دون اعتبار للجماعات اللّسانيّة وأمّا الاتّجاه الثّاني للسّرديّات ليس موضوعه الحكاية، ولكن المحكي كصيغة للتّمثيل اللّفظي للحكاية. وكما يقدّم نفسه مباشرة للتّحليل. إنّه يدرس العلاقات بين المستويات الثّلاثة الآتيّة: (المحكي، والحكاية، والسّرد)، ويجيب عن الأسئلة: من يحكي ماذا؟ إلى أيّ حّد؟ وحسب أيّ صيّغ (Modalités)؟[1].

1-2- لمحة تاريخيّة لعلم السّرد/السّرديّات:

السّرديات هي علم يتناول قوانين الأدب القصصيّ ولئن صاغ "تودوروف" المصطلح الفرنسي سنة (1969) للدلالة على "علم جديد لم يوجد بعد... (علم القصص)، فإنّ مفهومه كان جاريّا في مصطلحات أخرى أوسع مثل: الإنشائيّة، وعلم الأدب، والأبحاث التي أفادت منها السّرديّات أو جعلتها ضمن مجالها قد نشأت قبل ذلك بعقود[2].

---

[1] جيرار جينيت وآخرون، نظريّة السّرد من وجهة النّظر إلى التّبئير، ص97.

[2] محمد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، الرّابطة الدّوليّة للنّاشرين المستقلين، لبنان ط1، 2010، ص249.

وإذا كانت بعض الدّراسات تستعيد ثنائيّة "أفلاطون"، و"أرسطو" (السّرد والمحاكاة). وقد تبرز ما في المصنّفات البلاغيّة الأوروبيّة من إشارات إلى السّرد. فإنّ التّفكير الحديث في السّرد قد بدأ عند الرّوائيين في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر من بينهم:

"فلوبير" في مراسلاته، و"هنري جيمس" في مقدّمات رواياته عند إعادة نشرها سنة (1884). وكانت تلك المقدّمات منطلق بحث "لوبوك" (Lubbock) سنة (1921) في طرائق تقديم الأحداث في الرّواية، والتّمييز بين وجهات النّظر، وقد طوّره بعد ذلك باحثون آخرون في إطار اللّغة الإنجليزيّة مثل: "فورستر" (Forster) سنة (1927)، و" بوث" (Booth) دون الوصول إلى التّمييز بين المؤلّف والرّاوي. وقد اهتمّ الباحثون الألمان منذ أواخر القرن التّاسع عشر بعزل وإسقاط دور المؤلّف والرّاوي في القصص وتناولوا أساليب عرض الأحداث والزّمنيّة وأشكال التّركيب القصصيّ. ومن هؤلاء نذكر "لودفيغ" (Ludwig) و"يولاس" (Jolles)، و"والزال" (Walzel)، و"مولّر" (Muller) "ولامّار" (Lammert)، و"كيسار" (Kayser)[1].

وفي الفترة نفسها تقريبا ظهرت أعمال الشّكلانيّين الرّوس (1915-1930) وخاصة "إيخنباوم"، و"شكلوفسكي"، "وتوماشيفسكي"، "وبروب" حول أصناف السّرد ودور الرّاوي، وأشكال التّركيب القصصي، والحبكة، والشّخصيّة القصصيّة، وعلاقة المتن الحكائي بالمبنى الحكائي، والخصائص المميزة

[1] محمّد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص 249.

لهذا الجنس الأدبي أو ذاك وغيرها من المسائل التي استندت إلى قراءات واسعة في الآداب الأوروبيّة والاطّلاع على بعض الأبحاث السّرديّة السّابقة. ويبدو أنّ هذه الأعمال الشّكلانيّة لم تؤثّر بشكل مباشر في النّظريّة السّرديّة والنّظريّة الأدبيّة عامّة إلاّ بعد انفراط عقد الجماعة بعقدين أو أكثر. وخاصّة عندما أصدر "إيرليخ" سنة (1954) كتابه بالإنجليزية "الشّكلانيّة الرّوسيّة" مؤرّخا وعارضا لأبحاثها. وعندما أصدر "تودوروف" سنة (1965) كتابه "نظريّة الأدب نصوص الشّكلانيّين الرّوس" مترجما فيه إلى الفرنسيّة عددا مهمّا من نصوصها الأساسيّة، قبل أن يترجم "ابراهيم الخطيب" إلى العربية تلك الأبحاث سنة (1982) ضمن كتاب له بعنوان "نظريّة المنهج الشّكلي"[1].

إنّ ذلك التّراكم من البحث السّردي في اللّغات الأوروبيّة المذكورة هو الذي تأسّس عليه البناء التّصنيفي والنّظري، الذي أنجزته البنيويّة الفرنسيّة منذ السّتينيّات دون إغفال تأثير اللّسانيّات السوسيريّة، والأبحاث المتأثّرة بمفاهيمها المركزيّة. ولا شكّ في أنّ العدد الثّامن من مجلة (إبلاغات أو التّواصل) سنة (1966) يقوم دليلا على تلك الإفادة. وكان واضحا من مقال "بارت" (الافتتاحي) السّعي إلى التّحكم المنهجي في قصص العالم التي لا تحصى في كلّ الأزمنة، وفي مختلف الأشكال الحاملة لها اللّغويّة وغير

[1] محمّد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص 250.

اللّغويّة وردّها مثلما حاول الشّكلانيّون الرّوس إلى عدد محدود من القواعد والبُنى بالإفادة من الطّريقة الاستنباطيّة كما في اللّسانيّات[1].

ومنذ ذلك العدد، ترسخ في التّحاليل السّرديّة التّمييز بين القصّة من حيث هي حكاية، والقصّة من حيث هي خطاب، وهو موروث عن الثّنائيّة الشّكلانيّة "المتن" و"المبنى"، والتّمييز بين الكائنات الورقيّة القائمة في النّص. أيّ الرّواة والشّخصيّات والكائنات خارج النّص؛ أيّ المؤلّف والقارئ. ودُرست الشّخصيّة القصصيّة من حيث خصائصها ووظائفها ضمن النّظام السّردي والنّصي لا في علاقتها بواقع خارجي مفترض، وأثير النّقاش حول الطّريقة التي يُضاء بها منطق الأعمال في القصّة ومواقع الرّواة وأنماط الرّؤية وصيّغ السّرد ومسائل أخرى عديدة[2].

وإذا كانت أبحاث "بارت"، و"تودوروف"، و"جينيت"، و"غريماس" و"كلود بريمون" وغيرهم. قد طوّرت النّظريّة السّرديّة. فإنّها قد اتّجهت بالبحث السّردي اتّجاهات متقاربة حينا ومتباعدة حينا آخر. ففي ذلك العدد بالذّات من مجلة "إبلاغات" دُرس السّرد في الرّواية، والأساطير، والخرافات، وقصص الصّحافة، والأفلام. ممّا جعل السّؤال عن موضوع السّرديّات مطروحا بشكل صريح أو ضمني: هل تقتصر السّرديّات على البحث في القصص الأدبيّ المكتوب أم هل يتّسع عملها للنّظر في القصص الشّفوي والشّعبي المجهول المؤلف؟. وهل ذلك القصص هو التّخييلي وحده أم هل من الضّروري أن نبحث

---

[1] محمّد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص 250.

[2] المرجع نفسه، ص 251.

أيضا في القصص المرجعي؟. وهل السّرد الذي تجعله السرديّات موضوعا لها هو المصوغ بلغة من اللّغات الطبيعيّة أم هل هو أيضا المقدّم بوسائل سيميائيّة أخرى كالصّورة، والإشارة؟[1].

يبدو جليّا من تاريخ الدّراسات السّرديّة التي أشرنا إلى نماذج منها في الفرنسيّة، والانجليزيّة، والرّوسيّة أنّ المحاولات في بيان خصائص السّرد وقواعده وبناه، قد كانت في أغلبها منطلقة من نصوص أدبيّة تخييليّة (الرّواية، والأقصوصة). مع النّظر في القصص الشّفوي (الخرافات) أحيانا. وقد اتّجه البحث اتّجاهين متكاملين: أحدهما يحاول كما في مساهمات "تودوروف"، و"بريمون" أن يكشف قوانين الحكاية المرويّة من حيث منطلق الأعمال، الحبكة، والشّخصيّات وعلاقاتها، والثّاني: ينظر في الخطاب القصصي. وقد بُنيت مساهمة "تودوروف" على تصنيف "جان بويّون" سنة (1946) للرّؤية، وعلى ما صار متداولا من حديث عن الصّيغة في القصص وكان بحث "جينيت" الموسوم: (الخطاب القصصي) سنة (1972) محاولة فارقة في تاريخ السّرديّات، إذ أعاد فيه تنظيم عدد من التّصورات السّابقة في دراسة السّرد. وخاصّة ما ورد عند "تودوروف"، وفي النّقد الأنجلو سكسوني وجعل عمله في ثلاثة مباحث كبرى هي: (الزّمن، والصّيغة، والصّوت)[2] . ولئن أثارت تصنيفات "جينيت" ومفاهيمه، ومصطلحاته نقاشات واسعة ردّ على بعضها في كتابه: (الخطاب القصصي الجديد) سنة (1983).

---

[1] محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص 251.

[2] المرجع نفسه، ص، ن.

فإنّها قد وجدت صدى واسعا في مختلف اللّغات وتطبيقات على الإبداعات الرّوائيّة والقصصيّة لا تكاد تُحصى، وقد أفادت منها دراسات كثيرة سعت إلى تعميق النّظر في وجوه عديدة من مكوّنات النّص السّردي كالتّبئير والوصف، والمستويات السّرديّة. والشّخصيّة القصصيّة أو الحكائيّة وغيرها. ولم يقتصر تطبيق تلك المنظومة الاصطلاحيّة على الأدب وحده، وإنّما وُظّفت أيضا وإن جزئيّا في القصص الشعبيّة المجهول مؤلّفوها شأن "ألف ليلة وليلة" و"السّير الشّعبيّة"، ووُظّفت أيضا بدرجات متفاوتة في تحليل نصوص من القصص المرجعي كالسّير الذّاتيّة، والرّحلة[1].

وعلى هذا الأساس فقد تأسّس علم السّرد (Narratologie) بفضل مجهودات زمرة من الباحثين الفرنسيّين، وعلى رأسهم "جينيت" الذي أصدر في سنة (1971) كتابه (صور3) (Figures3). وكان النّقد قبل هذه الفترة ينظر إلى الأشكال السّرديّة المختلفة من منظور المضمون والمحتوى الأيديولوجي. فقسّم هذه الأشكال إلى أجناس منها: السّرد التّاريخي (RécitHistorique)، وسرد الرّحلات (Récit de Voyage)، وسرد الغرائبي (Récit Fontastique)، والسّرد الرّوائي والقصصي. وما إلى ذلك من التّقسيمات[2].

---

[1] محمّد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص252.

[2] ينظر: بوعلي كحال، معجم مصطلحات السّرد، ص5.

وأمّا التّطور الكبير الذي عرفته الأشكال السّرديّة، وخاصّة فن الرّواية أو القصة الذي أصبح مرادفا لكلمة (كتاب) في العصر الحديث. فقد توجّب على النّقد الأدبي الجديد أن يوجه صوب عنايته إلى هذا الفن. كما تصوّره "جيرار جينيت". فاهتمام "جينيت" بالرّواية في بادئ الأمر سرعان ما أدّى به إلى توسيع نظرته إلى الشّكل الرّوائي وخاصيّته الأساسيّة المتمثّلة في السّرديّة (Narrativité)، ليكشف فيما بعد أنّ هذه الخاصيّة ليست حكرا على الرّواية والقصّة. وأمام التّعدّد الهائل للأشكال السّرديّة (قصص، روايات تقارير، أدب رحلات...إلخ)، فإنّه كان على "جينيت" أن يركّز جهوده على موضوع السّرد. بغضّ النّظر عن القالب الأدبي الذي وُضع فيه. فالمهم عنده أن تتوفّر في النّموذج السّردي عنصر الشّعريّة أو الأدبيّة الذي يوليه أهميّة قصوى[1].

وانضمّ إلى "جينيت" نقّاد آخرون، كرّسوا جهودهم لاستجلاء معالم هذا العلم الجديد، كلّ من الزّاوية التي رآها جوهريّة في الظّاهرة السّرديّة. ومن بين هؤلاء نجد "مايك بال" (Mieke Bal) الذي قدّم دراسة مهمّة حول الملفوظ السّردي في سنة (1977). ثمّ تواصلت الدّراسات في نفس الاتّجاه فأصدر "لويس مارين" (Louis Marin) في سنة (1978) كتابه (Le récitest un piége)، ثم تبعه "أمبرتو إيكو" (Umberto Eco) بكتابه (Fabula) الذي نشر في السّنة نفسها. ثمّ توّج النّاقد والمفكر الفرنسي "بول

[1] بوعلي كحال، معجم مصطلحات السّرد، ص 8.

ريكور" (Poul Ricoer) هذه المجهودات بإصدار كتاب مفصل عن الزمن والسرد (Temps et récit) ، حيث خطا فيه خطوة عملاقة نحو تحرير علم السرد من بوتقة الأطر البنيوية التي هيمنت عليه لمدة طويلة. فاتحا الطريق نحو التأصيل النقدي المنهجي لعلم السرد (Narratologie)[1].

ومع بداية القرن 21 اتّسعت مدوّنة السّرديّات كثيرا، لما كانت عليه قبل قرن. فقد صارت تشمل أجناسا متعددة من القصص الشّفوي والكتابي والتّخييلي، والمرجعي. واستُغلّت مفاهيم السّرديّات في دراسة السّرد في نصوص غير أدبيّة كالدّينيّة، والسّياسيّة والصحافيّة. وظلّت السّرديّات في تفاعل مثمر مع الأبحاث اللّسانيّة، وخاصّة منها لسانيّات التّلفظ. ولسانيّات النّص أو الخطاب والتّداوليّة. وقد ساهم ذلك كلّه في إثارة إشكاليّات عديدة شأن العلاقة بين المشافهة والكتابة وحدود القول بلغة للتّخييل متميّزة. ووجاهة شمول السّرديّات لمستوى خطابي ملازم للنّص السّردي ومنفصل عنه في آن. وهو الجامع بين المؤلّف الفعلي والقارئ الفعلي، وما يترتّب على ذلك من مسائل كمسألة الذاتيّة وعلاقة النّص بالمقام في دوائره المتعدّدة وتعاضد السّرد والحجاج ونهوض النّص السّردي، سواء أكان تخييليّا أم مرجعيّا بوظيفة عمل لغوي[2] .

---

[1] بوعلي كحال، معجم مصطلحات السّرد، ص8،9.

[2] محمّد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص 253.

ولكن السّرديّات مازالت تواجه تحدّيا منهجيّا من حيث الموضوع المدروس. فبينما يعتبر بعض الباحثين مثل "جينيت" أنّ مجال السّرديّات هو النّص السّردي وحده؛ أي المتحقّق بلغة من اللّغات الطّبيعيّة، يرى باحثون آخرون أنّ السّرديّات تتناول القصص بشكل عام في فنون السّرد اللّغوي والكتابي، والشّفوي، وفي فنون أخرى كالمسرح، والسينما، والصّور المتحرّكة باعتبار أنّ القصّة هي مجموعة من الأحداث المتتاليّة القائمة على التّحوّلات والمنتظمة وفق منطق ما. وهذا التصوّر أنتج بحوثا في "البنية السّرديّة" التي تقوم عليها النّصوص القصصيّة أو المسرحيّات أو الأفلام أو غيرها وصار بعض الباحثين في المسرح يعتبرون أن الخطاب المسرحي ليس إلاّ نوعا من أنواع الخطاب القصصي، أو أنّ القصّة في المسرحيّة هي نظام خاص من الأنظمة السّرديّة، أمّا عند "غريماس" والباحثين في السّيميائيّة. فإنّ المجال أكثر اتّساعا وتجريدا إذ تفهم السّرديّة باعتبارها طريقة في انتظام المعنى سابقة للتّشكّل في خطاب. ممّا يجعل كلّ خطابا سرديا ويُفرغ مفهوم السّرديّة من مضمونه الحدثي والزّمني[1] .

[1] محمد القاضي وآخرون، معجم السّرديّات، ص 253.